العلم والإيمان

إن الإسلام إذ قرر ترابط أجزاء الكون وحوادثه ترابطاً مطرداً منتظماً - أو ما يسمى في الفلسفة الحديثة النظام السببي للكون - لم يقف عنده كما وقف الماديون، بل تجاوزه إلى طرح أعظم قضية كونيه:.. من أين جاء الكون ونظامه؟.. مَن خلقه؟.. من قدر نظامه؟.. ثم الإجابة عليها بتسلسل منطقي وإلزام عقلي.

إن هذه النظرة التي لا تقف عند حدود العلم التجريبي هي استمرار وإكمال الفكر العلمي، بل إن سلسلة التفكير العلمي تبقى ناقصة وغير منطقية دون هذا التمديد للخط البياني لبحث ما وراء منطقة العلم التجريبي.

إن بعض المطلعين اطلاعاً سطحيا على الفلسفة المعاصرة ظنوا أن في هذه الخطوة ما ينافي العلم والتفكير العلمي، وإنما جاءهم الخطأ من أنهم غفلوا عن أن سلطة العلم بالمعنى الخاص لا تتناول طرح هذه المسألة، وأن كل نظرية في أصل المادة وأصل الوجود هي من قبيل الفلسفة ومن أبحاث ما وراء الطبيعة؛ ولذلك كان من باب الخلط والجهل والمغالطة القول بأن نظرية المادية الجدلية - أو أي نظرية من نوعها تحاول تعليل أصل الكون والوجود - هي (علمية).

إن مثل هذه النظريات تبحث في فلسفة العلوم، ويتكون منها ما يسمى (بالنظريات الكبرى)، وإن كان العلم يقدم لها معطيات هامة ومعلومات مفيدة لتقريبها من الصواب، و(لكنها تبقى على كل حال من باب الافتراض والتخمين، وطريقها التأمل الفكري لا الاختبار والتجربة.

إن الطريق الذي سلكه الإسلام - كما يتجلى لنا ذلك في القرآن - يقيم انسجاماً منطقياً معقولاً بين التفكير السببي العلمي الموضوعي والإيمان بالله خالق الكون ونظامه السببي؛ فالإيمان بالله وبقدرته لا يمنع من النظر في تعاقب الحوادث وترابطها وتعليلها وخضوعها لسنة مطردة وقانون عام.

وهذا الذي يجعل كثيراً من كبار رواد العلم المختصين في العصر الحديث يرتقون بتفكيرهم من دائرة اختصاصهم في الكيمياء أو الفيزياء أو الحياة أو الفلك.. إلى الاعتقاد بوجود إله قدير عليم، وإن القصور عن إدراك أبعاد البحوث الفلسفية الحديثة هو الذي دعا بعض الكتاب إلى التورط الخاطئ فيما سموه نقد الفكر الديني، وخاصة في تطبيقه على الإسلام.

إن التفكير الإسلامي - بتأثير مباشر من القرآن والسنة - حدث في طرائق البحث العلمي تغييرا جذريا عميقاً بالغ الأهمية؛ ذلك أنه بدل المنهج التأملي الذي كان ينهجه اليونان، والذي يعتمد على مجرد التصور العقلي والقياسي المنطقي المجرد، وأقام المنهج التجريبي ولا سيما في مجال علوم الطبيعة والعلوم الاجتماعية، وجعله المنهج الأساسي في ميدان البحوث الطبيعية في الطب والكمياء والفيزياء والفلك وغيرها.

وعن المسلمين نقل علماء الغرب العلوم الرياضية والطبيعية والمنهج التجريبي؛ فقد ترجموا كتب المسلمين في هذه العلوم وهي مبنية على المنهج التجريبي، وعن المسلمين أخذ فرنسيس بيكون الذي يعتبره أوربا مؤسس الطريقة التجريبية، ولم تكن النهضة الأوربية التي سبقت العصر الحديث إلا نتيجة لترجمة التراث العلمي الذي أنتجه وأبدعه المسلمون، والطريقة التجريبية التي يقوم عليها بحوثهم، ولم يكن هذا الاتجاه في تقدم علوم الطبيعة والمنهج التجريبي لدى المسلمين إلا أثرا من آثار الإسلام وتوجيه القرآن والسنة.

كتاب (الإسلام والفكر العلمي)

للأستاذ/ محمد المبارك

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان".

رواه مسلم.